نحو أدب فلسطيني جديد

عاطف أبو سيف*

عملية سطو والتباس متبادل

أن تعيش في غزة يعني أن تعيش في نشرة أخبار. هكذا كنت أقول لأصدقائي الأوروبيين حين كانوا يسألونني عن غزة. أن تعرف أنك أداة في ترس صراع كبير لا يمكن لك أن تفلت من عقاله. قصص الناس في المساء يتحلقون أمام عتبات البيوت في المخيم، واسترجاعات الماضي الجميل دائماً عن قوارب تتهادى، أو نسائم تتسلل من خصاص نوافذ البيوت المطلة على بحر لا ينتهي في مدينة لم تنته يوماً من ذاكرتهم: يافا. قصص جدتي عائشة عن تلك الأيام "اللي راحت"، عن شبابها في يافا وعن قسوة رحلتها عبر سوافي الرمال المحاذية للبحر جنوباً إلى غزة، هي مَن جعلتني كاتباً.

كنت أريد أن أكون وفياً بامتياز لألم عائشة ولدموعها الساخنة كأنها تبكي رحيلها من يافا لأول مرة. كل مرة كنت أظن أنها تبكي للمرة الأولى في حياتها على ذاك الزمن الجميل، لكن ما أقسى البكاء حين يتخمر ويعتق، وما أكثر مرارة النفس حين يهبط القلب في قاع سحيق: تحس كأن عربة نقل "فغصته" كعلبة كوكاكولا على طريق سريع. ثمة ألم لا يُحتمل وحكايات تنضح حزناً وبحثاً عن مستقبل لم يعد ممكناً بسبب هذا الحزن. كان ثمة لحظة سردية افتراضية عليك أن تنطلق منها كي تؤسس لحكايات جديدة. لحظة هي كل ما تملك من الذاكرة ومن ذاكرة الآخرين. الذاكرة الجمعية للمخيم ولصوت الجدة يتهدج وأنتم تتحلقون حول كانون النار، بينما حبات الكستناء تطقطق كأنها تنبش الذاكرة، وتصب بنزيناً على النار.

حين بدأت أكتب في تلك الدفاتر الصغيرة قصصي الأولى، وأنا لم أزل في المدرسة الثانوية، كنت فرحاً سعيداً لأنني أحاول أن أعيد ألم الناس وأستجمع شجاعتهم المفقودة تحت عجلات قسوة الواقع. كان هذا يشبه سعادة نيرودا بعامل المنجم الفرح بالشاعر الذي يفكر في آلامه.

كان الدرس الأول الذي تعلمته في سجن النقب حين كتبت، وخلال النشرة الرمضانية، قصة بسيطة تصف يوم سيدة سيخرج ابنها بعد أعوام من السجن وانشغالها بالتحضير لاستقباله، وما إن

* روائي من مواليد مخيم جباليا / قطاع غزة ١٩٧٣. صدر له: "حصرم الجنة" ٢٠٠٣؛ "الأشياء عادية جداً" ٢٠٠٥.

يخرج ابنها وتعود به من حاجز إيرز إلى البيت حتى يأتيها خبر أن الجيش اعتقل ابنها الآخر. ما زلت أذكر تلك "الشخرة" الاستنكارية لأحد الأسرى، في ذلك الشتاء القارص في سنة ١٩٩٢، وهو يقول لي بعبارات قاسية: "كل هذا العناء كي تخبرنا أن شخصاً تحرر من السجن وآخر دخل إليه؟" كان هذا درسي الأول في السرد، فثمة شيء يجب أن يعنيه السرد للقارئ؛ فالحكاية لا تكفي كما لا يكفي الألم ولا تكفي الحسرات، كما لا تعين الأحلام والآمال قصة بائسة على نوائب الزمن. في سلسلة محاضراته الجميلة يسأل شيموس هيني: "ما الذي يجعل الشعر شعراً؟" وهو السؤال الأزلي ذاته الذي حاول أرسطو أيضاً الإجابة عنه بصيغ أُخرى. إن غاية الفن كانت ولا تزال سؤالاً شرعياً في البحث والقلق الإنساني. فصديقي في السجن كان يبحث عن شيء آخر وراء الحكاية أو "الحدوتة"، شيء يمسك به ويلقي القبض عليه. عملية سطو والتباس متبادل.

كانت عائشة بارعة في رسم يافا، تحفظ الشوارع وأماكن سكن الجيران والمستشفى والسوق والمقهى. كانت بارعة في تجسيد ما تروي في بانوراما مشهدية سينمائية. كانت تلك الاستعادات وهذا الإمساك بالماضي يحملان سحراً مؤثراً في مخيلتي. ليس من السهل الهرب من ذلك كله. ليس من السهل أن تجد نفسك خارج سياق المكان والذاكرة وكومة الأحلام المكسّرة التي تراها مثل تلال شاهقة خلف عقول الجيران، ولا الشموع المطفأة في أعين الصبية وهم يركضون في أزقة لا تتسع لهرولة أقدامهم وتدافعها نحو المستقبل.

وكثيراً ما كنت أجد نفسي أسيراً لهذا الألم، مطالباً بأن أكونه، بأن أعيشه، بأن أخبر عنه. أنت مطالب بالوفاء، الكل يطالبك الوفاء وكل له نسخته عن هذا الوفاء. لكنك مطالب أكثر بأن تلتزم بنصك، بأن تبحث عمّا يجعل هذا النص السردي تعبيراً حقيقياً عن الناس، وفي الوقت نفسه حاملاً قصة البشرية وألمها وأحلامها وضعفها، صراعها الأزلي بين الخير والشر، وانحدار الروح البشرية وانبعاثها من رقادها على الرغم من ذلك؛ تجعل من ذلك كله ممكناً بغضّ النظر عن هوية القارئ.

بدأت قراءاتي الأولى من الكتب القليلة التي كان يحتفظ بها أبي في خزانته الصغيرة. كانت تلك الكتب في وقتها بالنسبة إليّ مكتبة كبيرة لا تضاهيها حتى الآن أي مكتبة أُخرى. كان منع التجوال الذي يفرضه الجيش مع الانتفاضة الأولى فرصة لأن أنشغل بقراءة "السيرة الهلالية" و"كليلة ودمنة" وبعضاً من قصص "السيرة النبوية". وكانت بنية السرد في تلك الكتب تثير مخيلة الفتى الذي كان يحلم بأن يعيد سرد حكاية جدته في يافا.

كانت روايات توماس هاردي وأدب القرن التاسع عشر الفكتوري بواقعيتهما أول ما لفت انتباهي، ليس بميلهما إلى تفصيلات العالم الصغير الذي تدور فيه الحكايات المتشابكة والمعقدة، وإنما ببحثهما عن الروح الإنسانية والصراع الأزلي بين الخير والشر، وقوة هذا الأخير في انتزاع الإنسان من فطرته. وهذه الفطرة المفقودة بحكم التجربة وربما النضوج هي حالة السرد الافتراضية التي كانت تفلح في درّ دموع عائشة وهي تنعي ماضيها. من هنا أحببت روايات وليام فوكنر واستعادته عالم الميسيسيبي في الجنوب الأميركي والسقوط المؤلم للعائلة وللمجتمع. سقوط وتفكك يعكس ضعف الفطرة الإنسانية أيضاً، وكذلك قسوة الحياة حين تدوس البشر تحت عجلاتها. هو سقوط "كاندي" عن الشجرة وهي تحاول التلصص وتلوث ملابسها

الداخلية في مشهد فوكنر الجميل. هو ذاته سقوط عائشة من يافا إلى خيمة في سوافي غزة الحارة في نيسان / أبريل ١٩٤٨. بذلك اقتربت من جيمس جويس وفيرجينيا وولف وعالم الرواية المعاصرة حيث يصبح وعي الفرد وقلقه محركاً للسرد. ثمة غواية كبيرة في دمج الكاتب بين الموضوع والتكنيك بحيث لا تكون العلاقة وظيفية، وإنما عضوية تنبع فيها حاجة كل منهما إلى غيره من الآخر.

بعد ذلك سأكتشف تنوّع الأدب وغناه سواء على صعيد الموضوعات، أم الأساليب، أم المعالجات وتمظهر الواقع في المتن السردي، وسأكتشف أنه يمكن للمرء أن يكون وفياً لدموع عائشة، وفي الوقت نفسه ينهل من عالم أوسع تتداخل فيه الرواية مع الموسيقى والرسم والسينما. هكذا تصبح الرواية بنت عصرها ويكون الواقع براءة اختراع الفن، ليس بأن يكون الواقع تقليداً للفن في انعكاس محمود لمقولة أرسطو، وإنما في إعادة صوغ هذا الواقع كي تصبح لحظة السرد الافتراضية التي أشرت إليها ليست أكثر من تفجير لنبع متخيل. كأنني أعود مرة أُخرى لهذا الرابط الذي يضم هاردي وفوكنر، فكلاهما دارت رواياته كلها في مقاطعة متخيلة، فيها ضياع وقرى وشخصيات تتحرك، ويموت بعضها ويولد آخر. وكلاهما جعل من هذا الواقع المتخيل مصغراً لعالم يختصر روح البشرية وصراعها.

فلسطينياً، أشعر مع قصص غسان كنفاني بأنني في البيت. عالم غسان والحسرة التي تنطق بها شخصياته في انعكاس مباشر وغير مجمّل لكومة حزن كبيرة تندّ عن تنهيدة الناس في المخيم، وتكاد تنفجر. ربما لأن غسان كان يتحدث عن شيء قريب من خبراتي أو حياتي أو القصص التي سمعتها في الحارة، وربما لأن في غسان شيئاً منّا فهو "منّا وفينا". وهنا قيمة الأدب الحقيقية حين يعني شيئاً للناس، وأظن أن هذا ما قصده زميلي في السجن. كذلك كان الألم في روايات جبرا إبرهيم جبرا، وخصوصاً في البحث عن الهوية، في إكسير الذاكرة حيث يصبح البحث عن وليد مسعود هو بحث عنّا كلنا. وكنت أفرح كلما قرأتهما.

كنت ولا أزال أحب الشعر، وكنت أقرأ بنهم الشعر العربي القديم ممّا توفر في تلك الخزانة الصغيرة في غرفة البيت، لكني وجدت في القليل الذي انكشفت عليه وقتها من شعر محمود درويش وسميح القاسم تعبيراً عني. وبعد ذلك توسع الشعر ليشمل لوركا ونيرودا، ثم عرفت كيف يعبّر الشعر عن هبوط العالم وقسوة التذكر وامتحان جسارة الإنسان أمام اشتداد الحياة في روائع إليوت.

أظن أنني أتفق مع مقولة إن الكاتب لا يكتب إلاّ كتاباً واحداً طوال حياته، هو سيرته الذاتية. ليس لأن الكاتب أسير لحظات عمره، وإنما لأن ثمة في الحياة، بكل قسوتها ربما وبكل لحظات حزنها. إلى جانب تلك اللحظات المشرقة للروح البشرية وهي تحلم وتتخيل. غواية كبيرة تجعل من الإمساك بها ليس استعادة ماض جميل، وإنما بحث عن لحظات أجمل. فالماضي دائماً جميل، وذكرياتنا على مراراتها دائماً ما تُستعاد بالحنين. وهذه النوستالجيا التي تشدنا إلى قاع البئر الأولى في كلمات جبرا، لا يمكن الهروب منها.

غير أن هذه الطفولة التي تتدحرج أمام النص وتشدّني إلى قاع البئر، لا تمتد عميقاً فقط، بل إنها ما زالت تحمل نظرة الفتى من قاع البيت في المخيم إلى العالم الخصب الذي كان يتخيله خلال أيام منع التجول

وهو يسافر مع أبطال الكتب التي يقرأها، والذي تتضح معالمه في تلك الصور الشعرية الكثيفة التي كان يعجز فهمه عن تفكيك شفرتها لكنه كان يحس بها. من هنا كان العالم يتداخل في موضوعاته كما في أدواته الفنية، وتصبح تلك الذاكرة انطلاقة الموج في قلب البحر. إنه البحر الذي كان الفتى يسافر عبره وهو يرى الأفق من دون أن يلمسه.

وكان حين يكتب يفعل. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

١ـ فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٧٧ صفحة ١٢ دولاراً